التعبير اللهجي الجزائري وتوظيفه في القواميس الثنائيّة

د. محمد بسناسي*

جامعة ليون2(فرنسا)

ملخص:

من خلال بحثنا هذا، سنتطرق لطائفة من المسائل والمشاغل الوثيقة الصلّة باللهجة الجزائريّة، إذ سنبيّن طبيعة اللهجة من حيث أنّها استعمال تواصليّ لسانيّ محلّيّ بين أفراد الجماعة اللغويّة. ثمّ، سنتوقف عند ظاهرة الازدواج اللغوي في الجزائر، آتين على إبراز ملامحها؛ ذلك أنّ الواقع اللغويّ الجزائريّ، كان ولا يزال محكوما بتنوّعاته اللهجيّة، وبتلويناته المحكيّة، الخاضعة لمعطيات وأسباب عديدة.

ولا غرو أنّ الأطلس اللغويّ الجزائريّ، كان قد لفت انتباه المستعربين والمستشرقين، لاسيّما مع بدايات فترة احتلال الجزائر (1830)، تبعا لما لاحظه الغزاة من تميّز للهجات الجزائر عن نظيراتها في المشرق؛ فأولوا إذاً عناية فائقة لتدارس خصائص المحكيّات المتداولة، باستنباط أسسها النحويّة، وسماتها الصّوتيّة، وبعقد مصنّفات معجميّة ثنائيّة اللغة تشتملها، حتّى يتيّسر تعليمها، ويتذلّل تلقينها. ومن هذا المنطلق، عكفنا على تتبع أسباب وبواعث اهتمام الفرنسيين بجمع المادّة اللسانيّة المحكيّة من جهة، وانطلقنا في استقراء تجلّيّات توظيف مواد معجميّة وسياقات واردة من اللهجة الجزائرية، بين تضاعيف البنيتين الكبرى والصغرى من جهة أخرى. ومن أجل بلوغ مرامنا، اصطفينا بضع المصنّفات القاموسيّة، من تلك الّتي عنت بتضمين جوانب من المستوى المحكيّ الجزائريّ؛ فما طبيعة السياقات – المدمجة بين طيّات البنيّة الصغرى — من جملة ما تم نهله من الدارجة؟ وكيف انتهت معالجة المواد معجميّا في القواميس الثنائية اللغة؟ هذه جملة القضايا الّتي حاولت الدراسة استيفاء حقها من الطرح والشرح.

كلمات أساسيّة: الازدواجية اللغويّة، اللهجة، المحكيات الجزائريّة، القواميس الثنائيّة اللغة، العربية الفصحى، الجماعة اللغوية، التراث الشفوي.

– تمهيد:

لقد كان مَحَلُّ ميلاد المعجميّة الثنائيّة اللغة بين الفرنسيّة والعربيّة البلاد الفرنسيّة. وإنّ ما يثير انتباه الدارس للقواميس بين الفرنسيّة والعربيّة، هو اشتمالها على مواد وسياقات، متأتيّة من

المحكيّات المتداولة في الوطن العربي. إنّ القاموسيين الفرنسيين لم يكتفوا بإدراج المستوى الفصيح للعربيّة، بل زادوا أن تناولوا في مصنفاتهم المعجمية الثنائيّة اللغة كمّا غير هيّن من التعابير، والألفاظ المنتميّة للمحكيات العربية. ولا يخفى أنّ مثل هذا الاهتمام بالعربية، ومحكيّاتها، لم يكن وليد صدفة، أو نتاج فضول ذكي، ولكنّ السيّاق التاريخي والاستراتيجي، آنئذ، حتّم على الفرنسيين تدارس العربية وتدريسها، وتدوين مادة تخاطب مستعمليها اليوميّ، بغية تحقيق التفاهم معهم، وإنجاح أكبر للعمليّة التواصليّة.

إذا كان تعلّم العربية الفصحى ضروريا بالنسبة للغربيين – والفرنسيون منهم – لفهم المدوّنات العربيّة والإسلاميّة، وتدارسها، وكان هذا المرام ميسورا نوعا ما، لتوافر العربيّة على المصادر المرجعيّة الخاصّة بتعلّمها، من قواميس وكتب نحو، وأدب، وهلّم جرّا، فإنّ تعلّم المحكيّات لم يكن البتّة بالأمر السّهل؛ ذلك أنّ " اللهجات تتّسم بديناميّة من خلال خلق شفوي ومعجميّ خصيبين"[1].

ومن المعلوم أن متكلمي محكيّة معيّنة، ليسوا بحاجة لمراجع معجميّة أو نحويّة لتعلّمها وإتقانها؛ ذلك أنّهم يتخاطبون بها يوميا، إذ درجوا على سماعها والتحادث بها، وجُبلوا على استعمالها بالقوّة، وهي حيّة تتنفس متى لهجوا بها، وقائمة نابضة متى جرت على ألسنتهم؛ "فالاعتياد هو ترسيخ لفكرة الاكتساب. هذا ما يؤكد حقيقة اللغة بأنّها ظاهرة اجتماعيّة مكتسبة كأيّة عادة اجتماعيّة أخرى"[2]، أمّا الأجنبيّ غير الناطق بالعربية أصلا، فهو في أمسّ الحاجة لتعلّم لهجة قوم، لاسيما إذا كان مراده التواصل معهم، والعيش بينهم، ولن يتأتّى له تفقّهها من أيّ سبيل، ما لم يُقبل بداءة على إتقان الأساسيّ من مفرداتهم الذائعة، ومن استيعاب واف لتعابيرهم الشائعة. ولا نستغرب من ابتداع سار فيه الفرنسيون، لما عكفوا ليس فقط على تدوين ورصد المستوى المحكي للّهجات الجزائريّة، وإنّما كذلك لما راحوا يفردون للمحكيّات دراسات وبحوثا علميّة، ليستنبطوا خصائصها العامة، ويضبطوا سماتها البارزة في شتّى المستويات اللسانيّة[3]. والحال، فإنّ للقواميس دورٌ جوهريٌّ في رصد قطاعات من المنجز الكلامي، أي ذلك الأثر اللساني الموجود بالفعل، سواء تعلّق بالمستوى الفصيح، أو نظيره العاميّ، إذ يمنح القاموس متصفحه – زيادة على جملة الألفاظ ومعانيها الرئيسيّة – طائفة من السيّاقات المتنوّعة، المستقاة من مصادر متفرقة، ممّا قد يسمح بتقديم عرض شاف فيما يتصل بتوظيف المفردة، ولاسيّما من ناحيّة استجلاء دلالاتها المتلوّنة.

1– طبيعة اللهجة: ورد في **لسان العرب** في مادة لهج ما نصّه : "لهِج بالأمر لهَجًا، ولهوَج، وألهَجَ، كلاهما : أُولع به واعتاده، وأَلْهَجْتُه به"[4]. وفي المادة نفسها جاء بخصوص اللهجة ما يلي : "ويقال اللّهْجَةُ واللّهَجَةُ، وهي لغته التي جبِل عليها فاعتادها ونشأ عليها"[5]، على أنّ العرب

القدامى كانوا يُسمون، ما يُصطلح عليه اليوم اللهجات، لغات؛ فيقولون لغة أهل الكوفة، ولغة الشام. وجاء من معاني اللهجة في **المنجد في اللغة العربيّة** ما نصّه: " جرس الكلام وأسلوب اللفظ، صفة التعبير عن حالات نفسيّة وعن مضمون الكلام: (لهجة حازمة)، (غيّر لهجته)"[6].

ومن التعريفات اللسانيّة الحديثة، نجد أنّ مصطلح لهجة يُستعمل، "ليدلّ على محكيّة كانت أو لازالت متداولة في رقعة من التراب الوطني، مقارنة باللغة العامة المسمّاة أيضا اللغة المعياريّة"[7]. يعزّز هذا التعريف مفهوم محدوديّة توظيف اللهجة، واقتصارها على جغرافيّة معيّنة، إذا ما قارناها بلغة البلد الواسعة الانتشار. ومن مميّزات اللهجات عن بعضها البعض، "الاختلاف الصوتي [الذي] يلعب الدور المهم في اختلاف اللهجات وتنوّعها"[8].

وظلّت اللهجات العربية متداولة على مستوى جغرافيّ ضيّق دون أن تنازع العربية الفصحى، أو تحاول أن تحلّ محلّها. ومرجع ذلك الموقف الحازم، الذي تبنّاه دارسو وجامعو لغة العرب قديما، إذ لم يلتفتوا كثيرا لأغلب اللهجات المنتشرة؛ إذ إنّهم "قاسوها بمعيار اللغة الفصحى واعتبروا أيّ اختلاف عنها خروجا على الضوابط وفسادا لغويّا [...] ومن ثمّ فقد أهملوا تلك اللهجات التي أصبح البون بينها وبين الفصحى شاسعا، ولم ينظروا ويهتّموا إلا باللهجات التي تقترب في خصائصها من العربيّة الفصحى"[9].

وقد كان لرسالة الإسلام الفضل الأكبر في تمكّن العربيّة الفصحى من الانتشار، والاستعمال، والتدارس. ومعلوم أنّ العربية الفصحى نهلت من مشارب لهجات مختلفات؛ "والمعروف أنّ النحاة العرب درسوا لهجات عربية متعددة ليستخرجوا منها نظاما نحويّا موحدا"[10]. وهناك من يقول بوجود لغة جامعة بين العرب قبل الإسلام، "ومع وجود هذه اللغة المشتركة احتفظت اللهجات المختلفة ببعض خصائصها، فقريش لها خصائصها اللهجيّة كما أن لتميم أو طيء أو لغيرها خصائصها اللهجيّة، ولقد دخل كثير من هذه الخصائص اللغة الفصحى كما تمثلها لنا القراءات القرآنيّة"[11]. ثمّ إنّ كينونة اللهجات لم تضمحلّ بالكليّة، بمجرّد تشكل معالم لغة عرب جامعة، تنماز بفصاحة وسلاسة؛ ذلك أنّ ما قوّى شأو العربية الفصحى، وآزر ألقها أنها غدت لغة العلوم، والفنون، والأدب، والفلسفة. أضف إلى أنّ ممارسة مختلف الشعائر الإسلاميّة بالفصحى، جعل اللهجات تتموقع على هامش التطوّر، والرقيّ، ومن ثمّة فمسألة " الكتابة بالفصحى والتعبّد بها، وقراءة القرآن وتعليمه للصبيان عبر القرون، وقف سدّا مانعا في وجه نموّ اللغات المحليّة في العراق والشام ومصر وشمال إفريقيا وأسبانيا "[12].

تقتصر اللهجة على حيّز مكانيّ، تدور في مساحته، وتُتداول بين الأفراد المنتمين إليه، وبوصفها إذا قناة للتواصل، "تستخدم عادة في شئون الحياة العاديّة، ولعلّ هذا ما يفسّر تعدد لهجات اللغة الواحدة وتنوّعها"[13]، وعلى كلّ، تتبدّى أهميّة اللهجات في أنّها حاضنة الذاكرة الثقافيّة، لمنطقة ما، أو جماعة لغوية ما، إذ تشمل اللهجة الكثير من صنوف الثراء التعبيريّ اللغوي، والعديد من ضروب النتاج الفنيّ الشعبيّ. وهي مرآة عاكسة لتراث، وعادات، وتقاليد مجتمع من المجتمعات، بيد أنّها تبعا لخصوصية تداولها بالمشافهة، تُعدّ عرضة لضياع قطاعات هامّة من الذاكرة الجمعيّة الّتي تكتنزها، والتي تستأثر بها. وغنيّ عن البيان القول بأنّ الأجيال المتعاقبة تثري اللهجة، بالتعابير التي تصطنعها وتتداولها، وهي في ذلك تتفنن في اختلاق أساليب وتراكيب جديدة، وتصول في توليد معان مستحدثة عديدة، غير أنّه في أحايين كثيرة، تتّسم هذه المولدات بميسم الظرفيّة، أي أنّها عابرة؛ فتمرّ مرور الكرام دون تدوين أو تأثيل. كما أنّ قطاعات عديدات من الفن الشعبيّ، ينقطع تداولها بين الأفراد، ويحجم عن حكيها الروّاة؛ فتغدو إذ ذاك نسيّا منسيّا، تبعا للعزوف عن رصّها في الصحف، ونتيجة التغاضي عن تقييدها وإخراجها في كتب.

2– لهجة جزائرية أم لهجات ؟: ساعدت شساعة الجزائر الجغرافيّة – أكثر من مليوني متر مربع – على بروز تنوّعات لهجيّة، تبعا لما تتفرد به كلّ لهجة من مفردات وعبارات، قد يقتصر توظيفها في منطقة واحدة دون سواها؛ ومع هذا قد تشترك مجموع المحكيّات المتداولة هنا وهناك، في تداول تعابير جامعة، وفي تقاسم سمات لسانيّة مانعة. وأثارت جملة التداخلات، والفويرقات، والاختلافات بين اللهجات انتباه **سوسير** (**Saussure**)، الذي ذهب إلى القول بأنْ " ليس بينها [أي اللهجات] حدود طبيعيّة"[14]. يحيل هذا الرأي لتشابك العلاقات بين اللهجات المنتميّة للبلد الواحد، إذ يعتاص رسم فواصل طبيعيّة بينها؛ فهي تتقاطع، وتتباين في الآن ذاته. ولا غرو أن المحكيّة الجزائريّة تنطوي على لهجات عديدات، وهذا التلوّن اللغويّ الشفويّ، فيه ما فيه من خصوبة وثراء، على المستويين المفرداتيّ والصوتيّ؛ فناهيك عمّا هو مشترك في أكثر من إقليم، تنفرد محكيّة كلّ منطقة بجملة خصائص معيّنة. "وتظهر هذه الفروق أو الاختلافات في اللغة على جميع المستويات: الصوت، والنّحو، والمعنى، والمفردات "[15].

إنّنا نلفي زمرة من أسباب ومسببات تباين اللهجات وتنوّعها. فبداية، لا يخفى لما لعامل التّضاريس من أثر فاعل في تبلور هوّية اللّهجة، وتشكّل سماتها؛ "فالسهول تسمح بالتبادل على مسافات بعيدة، ما ينجم عنه تقارب لهجي، أمّا في المناطق الجبليّة أين تعيش الساكنة في شكل جماعات صغيرة ومتفرقة؛ فاللهجات تتباين فيما بينها"[16]، وبهذا النحو، لهجة ساكني الساحل

تختلف عن لهجة ساكني الهضاب. ثمّ إنّ العامل التّاريخي له يد ووقع، في اتّساق لهجة وتكوّن ملامحها. ومن المعلوم أنّ تاريخ الجزائر عامر بالاضطراب والتداعيّات؛ فتغيّر الدويلات والأنظمة السياسيّة، ولا مركزية الحكم غذّت التعدد اللهجاتي على مرّ الزمن، ومن ههنا فقد كان لتواتر الحضارات المتعاقبة، تأثيرات لسانية وثقافيّة لا تخفى؛ فأخذت المحكيّات الجزائريّة ما أخذت، من متنوّع الألفاظ والعبارات، وكثيرا أو قليلا فيما يتصّل بالتأثيرات الصوتيّة؛ "فاللغة المحكيّة حيّة، تخضع لقانونها الطبيعيّ؛ إنّها تتطوّر"[17].

إنّ التأثيرات الجغرافية والتاريخيّة ساهمت في تشكل معالم لهجات عديدات، إذْ يبدو أطلسها فسيفسائيّا في الجزائر، من حيث التنوّع والاختلاف. ومن اليسير ملاحظة الفوارق بين اللهجة العاصميّة (سكان الجزائر العاصمة)، واللهجة القسنطينيّة، واللهجة التلمسانيّة، واللهجة الوهرانية، وغيرها كثير. ينضاف إلى ما سلف ذكره توالي موجات الهجرة، القادمة من مختلف الآفاق، إذ إنّ كل موجة داهمة أثّرت وتأثرت، وحتّى أنّ أهمّها، والمتمثلة في قبائل العرب، لم تتمكن لغتها نهائيّا، وتستتب إلّا بعد مراحل وتدرج[18].

إنّ الزخم اللهجيّ الذي تعرفه الجزائر، لا يمنع من القول بوجود لهجة جزائرية جامعة؛ فالتواصل بين مختلف أبناء المدن الجزائريّة حاصل حقّا وحقيقا، حتّى وإن تعثّر الفهم أحيانا، لما يُوّظِف المتحدث مفردة أو تعبيرا، تنفرد به منطقته أو مدينته. ويمكن القول إنّ "الدارجة الجزائريّة، تسريع للفصحى، يميّزها الشين المصري في الأفعال، وفي شرق البلاد تحذف منها ألف في بداية الكلام، أو تخفيف الإدغام، [كما أنّها] اختلطت مع البربرية أيضا"[19].

3– بين الاستعمال اللهجي والفصيح في الجزائر: يُبيّن الواقع اللغويّ في الجزائر، انفراد اللهجة في الاستعمال التواصليّ اليوميّ بين الأفراد والجماعات، وهيمنة توظيف المستوى الفصيح في المنابر الرسميّة، ووسائل الإعلام، والوثائق الإداريّة. وقد أثار هذا الواقع اللسانيّ، أي اقتصار اللهجة على المستوى الشفوي انتباه بعض الدارسين، ونادوا بضرورة إيلاء مكنونات التراث الشفويّ الحظوة اللازمة من التسجيل، والتّدوين؛ فراحت **خولة طالب الإبراهيمي** في تسعينيات القرن الماضي مطالبة "بإنقاذ التراث الشعبي [شعر شعبي، أغاني، أمثال...] من النسيان أمام اكتساح أشكال تعبير ثقافيّة حديثة مستفيدة من التأثير البالغ لوسائل الإعلام وتقاناتها"[20].

إنّ تعدد المستويات اللغوية في جغرافية واحدة، وكذا تجاور لسانين بين أبناء شعب واحد، يقوداننا إلى عقد ميز بين مصطلحين متباينين، وهما الازدواجية اللغوية (**diglossie**)، والثنائية اللغوية (**bilinguisme**). أمّا مفهوم المصطلح الثّانيّ، فإنّه يقتضي تعايش لغتين في حيّز واحد،

"وممارستهما من قبل فرد أو جماعة"[21]، ولأدلّ على ذلك من تداول الفرنسية والانجليزية في كندا، ويُستعمل مصطلح الازدواجيّة اللغويّة لما تُعقد "مقابلة بين ضربين بديلين من ضروب اللغة، تُرفع منزلة أحدهما فيعتبر المعيار، ويُكتب به الأدب المعترف به، ولكن لا تتحدث به إلّا الأقليّة، وتُحط منزلة الآخر، ولكن تتحدث به الأكثريّة"[22]. وآية ذلك الواقع اللغويّ الجزائريّ المتراوح بين فصحى، وعاميّة. وحتّى إن صحّ هذا التوصيف للحالة اللسانيّة الجزائريّة، فما يلاحظ من خلال الإنتاج الكلامي، والتداول الفعلي لمستويي اللغة المذكورتين هو تجاوز المتكلم لهذه الازدواجية اللغويّة، أي ليس هناك استعمال لهجيّ صرف ونظير له فصيح خالص، إذ يكشف التداول التواصليّ الحقيقي سطحية النظرة التقسيميّة (عامي/فصيح)، وعموميتها؛ ذلك أنّ هناك تداخلات في استعمال المستويين اللغويين شفاها، بل وحتّى من النّاحيّة التحريريّة. وغنيّ عن البيان التّذكير في سياق الحديث عن تعالق المستويين الفصيح والعامي، أنّه كثيرا ما حفلت الآداب الشعبيّة، والمقامات، والموشحات بمواد لسانيّة مستمدّة من التعابير المحكيّة. وينبغي الإشارة كذلك أنّ "اللغة الشعريّة العربيّة لم تلغ الاختلافات اللهجيّة (فلم يكن هذا البتّة هدفها)، وحتّى النّص القرآني منحها، بقدر معيّن، حق الذكر"[23]. إنّ الممارسة اللغوية للجزائريين، مثقفين وغير مثقفين، تعكس بصدق التداخلات المعقدة في الإنتاج الكلاميّ، وفي لغة التواصل اليوميّ. ولقد حلّلت **خولة الإبراهيمي** طائفة من التفاعلات، الناجمة عن تداخل توظيف مستويات اللغة لدي الجزائريين، مبيّنة ما يؤول إليه هذا التّوظيف، فيما يشبه نوعا من الاسترسال (**continuum**)، الذي ينشأ من باب التنقل من مستوى لغوي لمستوى آخر[24].

إنّ انتشار الاستعمال اللهجي الواسع في الجزائر، لم تصاحبه اهتمامات الدارسين اللسانيين، والمختّصين في تحقيق التّراث اللاماديّ. فلم تتصدّ الدراسات اللسانيّة، إلّا قليلا، للهجات المحليّة المتداولة هنا وهناك، على الرغم من استعمالها الطاغي في الحياة اليوميّة، والفنون الشعبيّة، والشعر الملحون، وتوظيفها في الخطابات السياسيّة، والصحفيّة، والروائيّة، والمسرحيّة. وظلّت الفصحى إذ ذّاك قطب رحى المدارسات اللسانيّة توصيفا، وتنظيرا، وتدوينا. كما لم يتسارع الباحثون، في تدويّن ما تختزنه الذاكرة الجمعية، من موروثات ثمينة، تشمل فنون الحكيّ، والغناء، والأحاجي، والأمثال، والعبارات الشائعة الاستعمال والتداول؛ ذلك أنّ المفردات والعبارات التي لا تُدوّن هي قوائم ذاكرة آيلة للنسيان والضياع، ما لم تتداركها أقلام نابهة، بالجمع والتّحصيل، والشّرح والتّفصيل. زد على هذا المذهب من القول، ما يتميّز به كل جيل عن سابقه، من جهة توظيف

المفردات والعبارات؛ فاللاحق يضيف إلى الرصيد الموروث ما يضيف، ويتبرّم من قطاعات كلاميّة معيّنة، فيزورّ عنها ازورارا، إذ لكلّ جيل أساليب تعبيره، وطرائق توليده، للمفردات والمعاني.

4- أسباب الاهتمام الفرنسي باللهجة الجزائرية: قبل احتلال فرنسا للجزائر، دعا بعض المستشرقين إلى وضع قواميس بين الفرنسيّة والمحكيات العربية المنتشرة في المشرق والمغرب. وكان **ريفي** (**J.F Ruphy**) من الرعيل الأول، ممّن وضعوا مصنّفا معجميّا سنة 1802 بين الفرنسيّة والعربيّة وسمه (**قاموس مختصر فرنسي عربي**)[25]، وكان قصد **ريفي** أن يمهّد الطريق لمن سيأتي بعده من قاموسيين، حتّى يُقبلوا على تصنيف أكثر شموليّة وتكاملا، بما يجمعوه من مواد حيّة، لاسيّما من خلال عمل ميدانيّ استقصائيّ. وما حفّز **ريفي** على صناعة تأليفه، هو ما لاحظه من سوء تفاهم بين شعبي الشّرق والغرب، وذلك التنافر الحاصل بينهما على مدى قرون متواصلة؛ فتوارثت الأُمّتان الصور النمطيّة والأحكام المسبقة عن بعضهما البعض، وقد يكون الاختلاف اللغوي قد غذّى هذا النفور، إذ "من خلال اللغة تتأسس العلاقات بين الفرد والفرد، وبين شعب وآخر، وتترسخ الحقائق وتُروّج، وتُقتلع الأحكام من جذورها وتنهار"[26]. وكان هذا النداء داعيّا صراحة للتقارب اللغويّ، بغيّة الدفع بالنشّاط التجاري بين الفرنسيين وأهل الشّرق؛ ذلك أنّ عدم إتقان التجّار الفرنسيين للمحكيّات العربية، أدّى حسب **ريفي** إلى ضياع مصالحهم، وهدر أرباحهم.

لقد لفت الواقع الجزائري اللغوي نظر المعجميين، وبخاصّة الفرنسيين منهم؛ تبعا لما حفل به من ثراء لهجيّ، وما عجّ به من تنوّع كلاميّ محكيّ؛ إذ من منطقة لأخرى يتبدّل النّبر والتّنغيم، وتتباين صيغة التعبير، فيُنتقى من الألفاظ ما يُنتقى، حتى تغدو الألفاظ المنتقيات حكرا على منطقة دون سواها، فتشتهر بها، وتنفرد من ثمّة بتوظيفها. هذا ما أدّى بالمعجميين الفرنسيين إلى التوقف عند الإنجاز الكلاميّ اللهجيّ، بوصفه يمثّل لغة التخاطب اليوميّ لدى الشعوب العربيّة، والجزائر منها؛ فأفردوا في قواميسهم قطاعات لما يُتداول على ألسنة المتكلمين. ولم يكتفوا بإدراج المستوى المحكيّ الجزائريّ بتنوّعاته، وتفريعاته بين طيّات المصنفات المعجميّة فحسب، وإنّما درسوا أيضا وتدارسوا الخصائص الصوتيّة، والتركيبيّة، والدلاليّة لمحكيّات مناطق جزائريّة شتّى.

وكان الدافع الأكاديمي مبعثا لتعلّم وتعليم اللهجات العربيّة في فرنسا؛ إذ كان تدريس الفصحى في **مدرسة اللغات الشرقيّة**، يُستتبع غالبا بتدريس لهجة معيّنة، حتّى أنّه تمّ فيها استحداث "كرسي للعربيّة العاميّة المغربيّة سنة 1821 "[27]. وعلى كلّ، فقد هيمن تعليم

المحكيات العربيّة المشرقيّة على نظيراتها المغاربيّة؛ لأن الاتصال كان قد وقع منذ بداية القرن التاسع عشر بين الفرنسيين والمصريين والسوريين. أمّا مع الجزائريين، فقد ابتدأ الاحتكاك مع أوائل سنين فترة الاحتلال، ومن دلائل شغف الفرنسيين بالمحكيات، أنْ عكف جمهور من المستشرقين على تعلم اللهجة الجزائريّة، بين يديّ أساتذة ومعلّمين جزائريين؛ فهذا **ليون روش** (**Léon Roches**) الذي كان من مقرّبي **الأمير عبد القادر**، يورد فضل أستاذ جزائريّ درّسه العربية بفعاليّة عاليّة قائلا : " ولقد هداني أستاذي الجليل إلى تفاصيل عديدة، كانت تجهلها زمرة الأوربيين الّتي تتصدّى لمدارسة اللغة العربية "[28]. وسرعان ما تطوّر الأمر في فترة احتلال الجزائر، إذ أدرج الفرنسيون تعليم المحكيّات الجزائيّة "في المدارس التي افتتحوها لتعليم الفرنسيين العاملين في الجزائر من عسكريين ومدنيين عاملين في ميادين الإدارة والإعلام والتجارة وغيرها"[29].

وإنّ من أبرز بواعث وضع قواميس ثنائية اللغة بين الفرنسية والعربية – تشتمل على مواد مستقاة من المحكيات الجزائرية – صعوبة التواصل مع الجزائريين خلال بداية الاحتلال الفرنسيّ؛ " فالتراجمة المعتمدون لدى الجيش، والذين جيء بهم من مدرسة اللغات الشرقيّة، أو من هم أبناء المصريين والمارونيين –المملوكين– ممّن سافروا مع قواتنا، بعد الجلاء من مصر، وقعوا في حرج كبير [من ناحية التواصل مع الجزائريين]، وإنّ شبابا أتوا من تونس، من غير تكوين يُذكر، استطاعوا وحدهم فهم الأهالي"[30]. هذه الصدمة اللغوية دفعت باللسانيين الفرنسيين، ولاسيما المستشرقين منهم، إلى النظر والبحث في مسائل المحكيّات الجزائريّة لسانيّا، وإلى الاشتغال بالوضع القاموسي؛ لانعدام المصنّفات المعجميّة ذات الصلة بالمحكيّة الجزائريّة. أمّا ما كان مُؤلَفا قبل احتلال الجزائر، فلم يكن ليفيَ بالغرض؛ إذْ ما صنعه **إليوس بقطر**[31] من وضع معجميّ بين الفرنسيّة والعربيّة، دار قطب رحاه حول المحكيّة المصريّة.

وفضلا عن رغبة الجانب الفرنسي في تحقيق التواصل مع الجزائريين لقضاء مآرب إدارية وعسكرية، لا يمكن، بحال من الأحوال، تجاهل البعد الديني، الذي صاحب المدّ الاستعماري، إذ إنّ بسط النفوذ العسكري، استتبعته مناورات للمدّ الدّيني، وفي هذا السيّاق، لا نتناسى "دور المبشرين الذين حلّوا بحثا عن آفاق جديدة في المنطقة العربية "[32].

وقد أدّي عدم توافر المراجع التي تنهض بتتبع، ورصد، ومعالجة المحكيات الجزائيّة إلى تشجيع حكومي فرنسيّ رسميّ[33] سنة 1852، وذلك بمكافأة من ينكبّ على إعداد أحسن القواميس بين الفرنسيّة والعربيّة؛ فالجيل الأول من التراجمة والمترجمين الفرنسيين الذين اشتغلوا في الجزائر، افتقروا لمراجع قاموسيّة ثنائيّة اللغة، وبخاصّة تلك التّي تضطلع بلم شمل المادة اللسانيّة المحكيّة، بيد

أنّ المهلة التي حدّدتها الحكومة لوضع قواميس بين الفرنسيّة والمحكيات الجزائريّة، لم تكن بالكافيّة لوضع مصنّفات شافيّة، وانتهت المدّة الممنوحة لذوي الاختصاص دون أنْ ينهض أحدهم بجهد ذي بال، "وخيّم صمت عميق على نتائج هذه المبادرة"[34].

5– قواميس اهتمت باللهجة الجزائريّة: ينبغي الإشارة أوّلا إلى أنّ ظهور الصناعة المعجمية بين الفرنسية والعربية، قد انطلق في البلاد الفرنسية[35]، ولقد شرع العرب في تدارك تأخرهم في الوضع المعجمي الثنائي اللغة مع بداية القرن العشرين. وعلى كلّ، فقد كانت سنّة دأب عليها المستعربون الفرنسيون، في إيلاء المحكيّات المشرقيّة والمغربية حيّزا لا بأس به من العناية والتتبع. وأفرز شغف الفرنسيين بالمحكيات الجزائريّة تراكما معرفيّا هاما، من خلال جملة المدوّنات اللسانيّة، والمعجميّة التّي أنجزوها. وإنّنا لنلفي تنوّعا في ضروب المراجع التي تصدّت للهجات الجزائرية؛ فبعض الدارسين الفرنسيين، جمعوا بين الدراسة الوصفية للأسس النحوية التي تثوي عليها الدارجة، واستتبعوها بملحق للمفردات العامية، وما يقابلها بالفرنسيّة مثل ما أنجزه **بريسنييه** (**Bresnier**)، وهناك من جمع بين عدّة لهجات مغاربية في مصنّف معجمي واحد، كالجزائرية والتونسية في مصنّف **بوسييه** (**Beaussier**)، أو الجزائرية والمغربية في أعمال **كازيمرسكي** (**Kazimirski**). وفئة من القاموسيين تصدّت لمحكيّة مدينة جزائريّة واحدة، أو منطقة بعينها، ومن ذلك جهد **لوغواست** (**L'Abbé Leguest**) في تتبّع محكيّة الجزائر العاصمة، ونفر آخر راح يقتفي طائفة من اللهجات الجزائريّة، ويعالجها في مؤلف جامع، من قبيل وضع **شربونو** (**Cherbonneau**) القاموسيّ. و من ثمّة، فقد تباينت دوائر معالجة اللهجات، واختلفت طرائق الجمع المنتهجة.

ولا مندوحة من التذكير بإقرار الفرنسيين بمدى ثراء المحكيات الجزائرية، وتنوّع ملامحها في العديد من المستويات اللسانيّة؛ فهذا **فيليب مارسي** (**Philippe Marçais**) يصف المحكيات المغاربية فيما نصّه: "مواردها ثرّة، متنوّعة، متغيّرة، ومتوزعة على مستوى قطر شاسع"[36]. لذلك فقد كان الوضع المعجمي من لدن الفرنسيين وافرا، ومتنوّعا، وسعى لرصد التلوّنات اللهجيّة. وعليه، فإنّه يصعب الحديث في وريقات معدودات، عن مجمل ما أُنتج من مراجع قاموسيّة؛ لذا سنكتفي بطرق مصنّفات عرفت رواجا دون أخواتها.

1.5– قاموس بوسييه (1821–1873) (Beaussier): لقد ظهر **القاموس العملي عربي– فرنسي** سنة 1871، وفيه عنى **مارسلان بوسييه** بجمع مواد لسانيّة، استنبطها من طائفة من المحكيات الجزائرية، مستفيدا من تعلّمه العربية في باريس وتونس، ومتّكئا على تجربته كترجمان

رئيسي في الجيش الفرنسي. ومع هذا، فالمعجميّ يقرّ بمدى صعوبة جمع كل المفردات المتداولة في مختلف المناطق الجزائريّة، مع أنّه قضى وقتا طويلا في مدينة الجزائر، وجمع ما تيسر له من مواد خلال مقامه بوهران ومستغانم.

أمّا فيما يتصّل بمحكيّات الشّرق الجزائري؛ فقد توكأ على ما تمّ نشره من لدن معجميين آخرين، ومن ثمّة؛ فغالب ما توصلّ إليه **بوسييه**، يُعد تأليفا قاموسيّا، عوّل فيه صاحبه بشكل ملفت على الاستقصاء الميداني المباشر، متلقفا المادّة اللسانيّة من ناطقيها الأصليين، إذ يقول: "دام مقامي في الجزائر سبعا وعشرين سنة، ونظرا لوظائفي، فقد كنت في اتصّال غير منقطع مع الأهالي، [فضلا عن] التّرجمات العديدة لمختلف النصوص، بما فيها أحكام القضاة"[37]، كما غذّى المادّة الشفويّة، بمواد أخريات استمدّها ممّا توصل إليه من سبقه من معجميين، ومن دارسين ضالعين بشؤون المحكيّات الجزائريّة.

ويُحسب مصنّف **بوسييه** إلى يوم النّاس هذا من المصادر المرجعيّة الأساسيّة، من جملة ما دوّن في اللهجات الجزائريّة. وآية هذه المكانة السامقة التي تبوّأها، معاودة طباعته مرّتين من لدن دوري نشر مختلفتين خلال العقد الأخير[38]. وما زاد، بحق، من أهميّة المصنّف المعجميّة المراجعات، والإضافات والتّنقيحات الّتي زيّدها **محمّد بن شنب** (1869-1929) على نص المدوّنة. وينبغي التنويه ههنا بما عرفه القاموس من استدراك وتتمة، كان صاحبهما **لونتان** (1884-**Albert Lentin**, 1971)، والذي وسم تأليفه ب: (**ملحق للقاموس العملي العربي الفرنسي لمارسلان بوسييه**)[39].

بناء على ما سلف ذكره من تعدد القاموسيين، الذين تداولوا على مدوّنة **بوسييه** المعجميّة إثراء وتنقيحا، تنكشف أهميّة التمعّن والنظر فيما جاء في المصنّف، من عصارة أبحاث مضنيّة، واجتهادات خصيبة، انتهى إليها واضعوه، عبر فترات متباعدة، لكن بنسق متئد، ومتواصل.

تضمّنت طبعة القاموس الذي اشتغلنا عليه ديباجة نسخة 1887. وفيها أشار المعجميّ لسياق الجمع والوضع، إذ تطرق لصعوبة تواصل الفرنسيين مع الأهاليّ، تبعا لعسر الفهم، وتعذّره كلّيا في أحايين كثيرة. وأوضح أنّ صعوبة التفاهم هذه طالت حتّى الدارسين للعربيّة، من متستشرقين أو غير متخصصين، فهم قد اصطدموا بمحكية محليّة، تختلف في نظامها اللساني عن ما تلقنّوه في أقسام تدريس العربيّة الفصحى. وفي هذا السّمت، خلص إلى إنّه "من غير المفيد التّصريح بأنّه [دارس العربية الفصحى] سوف لن يتواصل مع الأهالي لتعذر الفهم"[40]، وساق،

على سبيل التدليل، عجز تواصل التراجمة الذين صاحبوا الجيش الفرنسيّ أثناء غزو الجزائر، إذ وقعوا في حرج كبير، ولم يتواصلوا بشكل عادي مع الجزائريين. وأشار **بوسييه** كذلك إلى مسألة ندرة، وغلاء المصادر المرجعيّة الخاصّة بالعربيّة الموّجهة للفرنسيين. ثمّ أتى على ذكر أسباب اختلاف العربيّة المحكيّة عن العربية الفصحى.

من ناحية تصفيف المواد، لم يعوّل المعجميّ على الترتيب الألفبائي، والذي يراه **بوسييه** محدود الجدوى؛ فمن منظوره لا تتأتّى فعالية هذا النّوع من الترتيب إلّا لما تكون مادة القاموس ضئيلة؛ لذلك جاءت مداخل قاموسه مرتبّة حسب الجذور، وهو في هذا السّمت يذهب مذهب من سبقوه في وضع القواميس الثنائية، إذ يقول: "اتبعت فيه الترتيب على أساس الجذور، وحاكيت في عملي القواميس التي نُشرتْ من قبل"[41]. وبررّ عدم التجائه للتمثيل الصوتي بالفرنسيّة لطبيعة حجم المادة القاموسيّة، والتي لا تقبل، حسْبه، زيادة معلومات إضافيّة.

1.1.5. نماذج من توظيف التعبير اللهجي في قاموس بوسييه: إنّ المواد التي كان مصدرها اللهجة الجزائريّة، جاءت ثرّة بين ثنايا القاموس، وسنورد ههنا بعض خصائص توظيفها، من زاوية معالجة القاموسيّ.

* عندما يتعذر إيجاد المقابل الفرنسيّ للفظة الجزائرية، ينزع القاموسيّ إلى تقديم المعنى أو المفهوم المقصود، مثل ما ورد في مادة "بردعة"[42]:

جيت بردعة (je suis venu à dos de mulet, ou sur un cheval de bât)
(bât de mule ou d'âne)

* لما تكون اللفظة الدارجة مختزلة لعبارة فصيحة، يشير القاموسي للاستعمال الأصلي الفصيح، ومن ذلك[43]:

بأيّ شيئ (avec quoi) باش (pour)

* تعكس بعض التوظيفات السيّاقيّة اللهجيّة، ما كان منتشرا من أمراض فتّاكة، خلال فترة الاحتلال الفرنسي، ومنها الطاعون الذي يُعبّر عنه ب "الحبوبة"؛ ففي مادة "خرج"[44]، نلفي ما نصّه:

الحبوبة تخرّج كلّ يوم خمسين روح
(la peste enlève cinquante personnes par jour)

* كان القاموسيّ حريصا على تسجيل كيفيات النطق الرائجة، نجد على سبيل المثال[45]:

بلارج، برارج (cigogne) بعدانيتك، بعدانيت، بعدتيك (déjà)

* وأحيانا تُذكر الفويرقات، ولو كانت تتعلق بتبدل طفيف لطرائق النطق، من شاكلة[46]:

باطوار، بطوار (abattoir)

* لم تخلو بنية القاموس الصغرى من توظيف العبارات المتصاحبة، ومنها العبارة التّاليّة[47]:

يخلّط ويجلّط (Il met tout sens dessus dessous ; il parle à tort et à travers)

* حضور الأمثال الشعبيّة في البنيّة الصغرى، والتي لا مناص من تأويلها، حتّى يتضح معناها، ومنها[48]:

(S'insinuer entre deux personnes, entre deux parents, des amis, dans le but de les brouiller, de les desservir)

(دخل بين الظفر واللحم)

يتبيّن من خلال السياقات التي سقناها، أنّ القواميس التي تعنى بالمحكيّات ذات فائدة في تتبّع تطوّر التعابير، والألفاظ، وفي رصد التغيّرات التي تطرأ على مستوياتها اللسانيّة، كما أن هذا النّوع من المصنّفات قمين بإعطاء ملامح عن حياة الجماعة اللغويّة، وعاداتها؛ أي أنّ الأهميّة مزدوجة: لسانيّة واجتماعيّة. وقواميس اللهجات تعد إذاً سجّلا، يحوي بين طيّاته الجانب الشفوي من كلام الجزائريين، خلال العقود الأولى من الاحتلال الفرنسي.

2.5– ملحق لونتان على قاموس بوسييه: صدر ملحق **ألبير لونتان** عام 1959، ولقد اشتغلنا على النسخة التي وردت مضمومة إلى قاموس **بوسييه**، ويقع على امتداد اثنتي عشرة وثلاث مئة صفحة، ووسمه صاحبه ب: (**ملحق للقاموس العملي العربي الفرنسي لمارسلان بوسييه**)[49]. وفي تقديمه للمصنّف، يبوح **لونتان**، بأنّ ما جمعه من مادة تنحدر أساسا من الشرق الجزائري، أين قضى طفولته غير بعيد عن سطيف، وأين امتهن التدريس في سكيكدة وقسنطينة. وهو يفصح عن مصادر مواده فيما نصّه : "إنّ العديد من المفردات زودني بها تلامذتي المسلمون"[50]، ومواد أخرى جمعها بفضل مقامه في وهران، والعاصمة، وتونس. ولم يفوّت الإشارة لظاهرة تبنّي الجزائريين للكلمات الفرنسية، وتداولها في الدارجة قائلا: "يُعَرّب السواد الأكبر من السكان المسلمين في المدن أكثر فأكثر بعضا من أفعالنا وأسمائنا "[51]، ولِتَثَبُّتِ صحّة المعلومة التي أزجاها القاموسيّ، توكأ على مراجعات مصدرها ناطقون أصليون من الجزائريين.

2.2.5- بعض سمات التوظيف اللهجي في ملحق لونتان:

* استمدّ المعجميّ سياقات تراثيّة، من شاكلة الأمثال الشعبيّة، والتي نزع إلى نقلها بمعانيها الجزائريّة، ثم عمد إلى إتيان مثل أو عبارة مضارعة، إن توافرت في الفرنسيّة. نسوق على سبيل التدليل ما ورد في مادتي (إلّا ما)[52] و(جرد)[53]:

لا تغيس إلّا ما تقيس

(ne creuse pas avant d'avoir mesuré : il faut réfléchir avant d'agir)

برنوس جريدي، لابس كريدي (! bien habillé, mais à crédit)

* التجأ القاموسيّ إلى توظيف مختلف حالات الاستعمال، لما تتنوّع التعابير، من منطقة لأخرى، مقابل مفردة فرنسيّة واحدة؛ فمثلا قد يعرض ما هو مستعمَل في الشرق والغرب الجزائريين على حدّ سواء[54]:

الْهيهْ (const)، لغادي (Oran) là-bas

* استعان القاموسيّ بمواد معجميّة، استقاها من مناطق متفرقة؛ فلم يقتصر على محكيّة بعينها، لذلك قد يورد لبعض المواد، ما هو مستعمَل في تونس، وينوّع في إيراد مواد أخرى، ممّا هو رائج التداول في مدن جزائريّة كسدراتة مثلا[55].

برشة (Tun) beaucoup, bien, très

سكسو (Sedrata) couscous

* عندما لا يجد المقابل بالفرنسيّة، يضع علامة استفهام بين قوسين[56]:

سكسل بوسكسيل (؟)، ورد سكسول (؟)

* عندما لا يكون متأكدا من المقابل الفرنسي الذي يسوقه، يتبع الترجمة بعلامة استفهام[57]:

جحمومة (? bergeronnette)

* استرعت محكيّة يهود الجزائر انتباه القاموسيّ، وأدرج بعض الاستعمالات اللغوية، التي جرت على ألسنتهم، من شاكلة ما جاء في مادة "تسبينة"[58]، المتبوعة بتعليق مفاده (يتلّفظ بها يهود قسنطينة): تسبينة (prononcé par les Juifs constantinois)

* يضيف القاموسيّ أحيانا بعض التعريفات، ممّا راج وتداوله أبناء منطقة ما، وبخاصّة فيما يتصّل بمسمى مرجعي معيّن، مثل ما هو مبيّن في مادة (ضبع)[59]:

الضّبع (نباش القبور) l'hyène

* عندما تتعدد طرائق النطق، يورد مختلف أشكالها، خاصّة تلك المواد المقترضَة من الفرنسيّة، والمنطوقة بالدارجة الجزائريّة، وآية ذلك ما يلي[60]:

جرنالات، جرنانات، جرنارات، جرانير، جنانر، جنانير (plur) جرنان، جرنال journal

تيطوار، تروطوار trottoir

* تلْقى العبارات الجارية الاستعمال مكانا لها بين ثنايا البنية الصغرى للقاموس، وكانت ترجمتها تتّم وفق باب محاكاة العبارة الأصليّة إلى الفرنسيّة، مع تحديد سياق استعمالها، مثل ما أتى في مادة (جن)[61]:

الجنون على أكتافك

Que les génies chargent tes épaules ! se dit à qui siffle (Sét)

ما يمكن استخلاصه إجمالا، من سمات التعبير اللهجي، الموّظف في **ملحق لونتان**، هو لا محالة تجلّيات التأثر بالفرنسيّة في اللغة المحكيّة الجزائريّة، نظرا للاتصال المباشر بين النظامين اللسانيين. نستشّف أيضا حرص القاموسيّ على تتّبع كيفيات النطق المتعددّة للّفظة الواحدة، وتباينها من منطقة لأخرى، ومنحها حقّها من الذكر.

3.5– قاموس أوغست شربونو (1813–1882): كان **شربونو** من أولئك الذين عكفوا على دراسة اللهجة الجزائرية؛ إذ وضع في 1854 مصنّفا حول تصريف الأفعال في المحكيّة الجزائريّة. ثمّ اشتغل على جمع المادةّ الكلاميّة الدارجة، ليخصّص لها قاموسا فرنسيا عربيا سنة 1872. وكانت نشاطات **شربونو** منصبّة على توصيف المحكيّة الجزائريّة، وتسجيل قطاعات من موادها المعجميّة والسيّاقيّة في مدوّنات هامة؛ لذلك نلفاه في ديباجة قاموسه، يستفيض في تعداد سمات العاميّة الجزائريّة النحويّة، والصّرفيّة، والصّوتية، ويفصّل في خصّائص الانجاز الكلامي تفصيلا، ويبيّن كيفية تتابع الجمل والتراكيب. ولقد كان مصنّفه موجها للمعمرين (**colons**)، إذ قال ما نصّه: " أضعه تحت تصرف مستوطنتنا الجميلة؛ فمن غير اللائق عدم معرفة لغة بلاد غزوناه"[62].

وبعد طول معايشة الجزائريين، ومخالطتهم، تيّسر له جمع مادة لا بأس بها من المفردات والتعابير والسياقات، التي لهجت بها ألسنتهم، إذ دام مقامه "خمسا وعشرين سنّة وسط المدن والقبائل الجزائريّة"[63]. ومن ثمّة، مكّن طول الاحتكاك بالناطقين للمحكيّات الجزائريّة القاموسيّ، من التوّصل بما جرى استعماله، وانتهى به الأمر، بعد ذلك، بالأخذ بما عهدوا تداوله؛ فبثّه، وصفّفه في مدوّنة هامة.

1.3.5– نماذج من توظيف اللهجة في قاموس شربونو:

* من أهم ما يتّسم به قاموس **شربونو** توظيف سياقات مستقاة من المحادثات اليوميّة للجزائريين، وهذا ما ينّم عن ملاحظاته الدقيقة، لما جرى على الألسن من تواصل كلاميّ يوميّ، وفيما يلي عيّنات، ممّا وظّفه من عبارات، في مسعى منه لتقديم شواهد حيّة من أفواه ناطقيها[64]:

Etouffer cette chambre est trop petite, on y étouffe had'el-bit ḍeiiḳa bizzaf, enṛommina fiha .

هذه البيت ضيقة بالزاف انغمينا فيها

Afin de, afin que bach باش

Afin que nous arrivions de bonne heure **باش نوصلوا بكري** Bach nouṣlou bekri

* يورد مترادفات عندما يكون هناك أكثر من توظيف واحد في المحكيّة الجزائريّة للمفردة الفرنسيّة، وقد يحصل وأن تنتمي المرادفة الأولى إلى الاستعمال الفصيح، والثانيّة إلى الاستعمال الدارج، ومن ذلك[65]:

Boulanger كوّاش kouwech, pluriel kouawecha; خبـــاز khabbaz

Empoisonné مرهوج merhouj مسموم mesmoum

* يلتجئ القاموسيّ أحيانا، إلى التعليق على التغيّرات، التي طرأت على اللفظة العاميّة، عندما يكون مصدرها العربية الفصيحة، من قبيل استعمال "كورة" في المحكيّة الجزائريّة، بدل "كرة"، التي هي الأصل في الاستعمال الفصيح[66]:

Boule s. fém كـورة koura, pl.kour (altération de كـرة kora)

* لم يدرج **شربونو** كثيرا الأمثال الشعبيّة؛ لأنّه رأى من الأليق وضعها في مصنّف مستقل، وعمد إلى الإشارة إليها بعلامة خاصة من حيث كونها أمثالا، ومن ما ورد منها في القاموس نذكر[67]:

Ami حبيـــــب ḥabib prov. Une pierre offerte par un ami vaut une pomme

حجرة من يد الحبيب تفاحة hajra min ied el-ḥabib teffaḥa

ونعلم لما للأمثال المزجاة في الخطاب التحريري أو الشفوي من القوّة التعبيريّة، والسّبك الموجز، والمعنى البليغ؛ فهي تمثّل قمّة تفكير جماعة إنسانيّة، ذلك أنها تحمل رقائق من الحكمة، وتبوح عن مستصفى تجارب شعب في الحياة، ولاسيّما ما انتهى إليه من نظرات ذوات صلات بشقّ

المعاملات مع الآخرين. والمثل " صيغة تتكوّن من مفردات قارّة، وغالبا ما تكون استعارة أو كلاما مجازيّا، تعبّر عن حقيقة تجربة أو نصيحة بحكمة عمليّة وشعبيّة، وتتقاسمها فئة اجتماعيّة "[68]، وسواء كان مرجعها اللغة الفصحى أو العاميّة؛ فإنّها سياقات مرجعيّة، تقوّي الكلام، وتنفح فيه الحُجّة المتينة.

* مثلما ورد في السياقات التي استشهد بها القامويسي، نلاحظ توسل التقديم المعجميّ بالتمثيل الصوتيّ؛ أي كتابة الأمثلة والمفردات العربيّة بالحروف الفرنسيّة، كيما تسهل القراءة للمتعلّم الفرنسيّ.

6- الاتصال بين المحكيّات الجزائرية والفرنسيّة وأثره في القاموس الثنائيّ اللغة: تبيّن لنا أنّ القواميس الثنائيّة اللغة، التّي تناولناها بالدرس والتّحليل، عالجت موادا هامة تتعلّق باللهجات الجزائريّة، من مفردات وعبارات وسياقات. ولقد توّصلنا إلى طرائق شتّى توسلّ بها القاموسيون، كيما يعرضوا قطاعات نموذجيّة لما تداولته ألسنة الجزائريين. وليس من نافلة القول التذكير بأنّ الواضعين كانوا على اطلاع واتصال مباشرين، بما جرى في الاستعمال اللهجيّ اليوميّ، إذ عاشوا مع الجزائريين، وخالطوهم، وتعلّموا على أيديهم اللغة، ثم إنّهم عكفوا على جمع المادّة اللسانيّة من شفاه ناطقيها، وهم قد استعانوا أثناء ثبت المواد المدرجة، بإقرار ثلاث أو أربع ناطقين للمحكيّة المعنيّة بالتدوين[69].

من المعلوم أنّ الفترة الاستعماريّة من تاريخ الجزائر، عرفت موجات هجرة من فرنسا إلى الجزائر، لتكوين جماعة أوربيّة تتعهد مصالح الفرنسيين، وتمكنّهم من فرنسة البلاد؛ فإضافة إلى المدنيين منهم، كان هناك تواجد عسكري هام، وعليه فمن أبرز عوامل ومسببات الاتصال بين اللغات، هو ذلك "النزوح الكثيف لجماعة تتحدث بلغة ما مدفوعة للاستقرار لبعض الوقت، أو لفترة طويلة في رقعة جغرافيّة تقطنها جماعة لسانيّة أخرى"[70].

وحدث أنّ التركيبة البشريّة الأوربيّة الوافدة، دخلت في تجاور مع الجزائريين، ممّا تمخضّ عنه احتكاك بين اللهجة الجزائريّة، واللغة الفرنسية، وهذا التّماس نجم عنه تأثير وتأثر بين الجماعتين اللغويتين المنتميتين لكل نظام لسانيّ؛ فالجزائريون تبنّوا الكثير من الألفاظ الفرنسية، ودرجوا على استعمالها في محكياتهم، والفرنسيون أخذوا بدورهم مفردات عن الجزائريين. وبذا، فمن أبرز نواتج الاحتكاك بين الجماعتين اللغويتين، التجاء كلّ جماعة توظيف مفردات من الجماعة الأخرى؛ أي حدوث اقتراض متبادل بينهما. وهذا الأخذ والعطاء، كان سمّة الاحتكاك بين الفرنسيّة والعربيّة،

وأدّى إلى "تأثير متبادل، ولكن مع بداية القرن التاسع عشر، تفشّت بخاصّة الكلمات المقترضة من الفرنسيّة في العاميّات العربيّة، وتمّ ذلك بطرائق مختلفة"[71].

ولقد سلف أن بسطنا ظواهر تغلغل المفردات الفرنسية في عاميّة الجزائريين؛ ذلك أنّ القواميس التفتت لها وسجلّتها. ونلفي بالمقابل أن المعمرين والعسكريين الفرنسيين، أخذوا ما أخذوا من مفردات ذائعة الانتشار في لهجات الجزائريين، حتّى أنّ منها ما هو مثبت في أهم القواميس الأحاديّة اللغة الفرنسيّة[72]، ونظرة للقواميس الثنائية اللغة بين العربيّة والفرنسيّة، تفضي كذلك إلى تأكيد نتائج هذا الاتصال اللغوي المباشر، وتبنّي الفرنسية لمفردات جزائريّة، ولعلّنا نكتفي بذكر بعض منها ممّا ورد في **المنهل**[73]:

(**مكاش** (macache)[74]، **كيف كيف** (kif-kif)[75]، **مشوي** (méchoui)[76]، **شاشية** (chéchia)[77]، **مشتى** (mechta)[78]، **غندورة** (gandoura)[79]، **حركي** (harki)[80]، **جبل** (djebel)[81]، **حيك** (haïk)[82]، **واد** (oued)[83]).

ومن أهمّ بواعث اللجوء لتبنّي مفردات لغة أخرى، هو حالة حصول فراغ معجميّ في نظام لسانيّ ما، أي "عدم وجود كلمة واحدة في لغة ما لتدل على شيء معيّن"[84]، ومختلف اللغات واللهجات تغطي العجز في تسميّة الأشياء، بما هو متوافر لدى اللغات الأخرى من مفردات، وهي بذلك تملأ الفراغات المعجميّة.

الخاتمة:

نجمت عن تداعيّات الاحتلال الفرنسي للجزائر، حاجة ماسّة لتعلّم المحكيّات الجزائريّة، بغية التواصل مع الجزائريين. وتبيّن وجود خلل بائن في عمل التراجمة والمترجمين، ومؤدّاه عدم إتقانهم للهجات الجزائريّة، وما زاد من هذا العجز حدّة، انعدام المراجع المعجمية؛ ممّا دفع بالمستعربين الفرنسيين إلى الاهتمام بالمحكيّات المنتشرة في الجزائر، وتدوينها في مصنّفات خاصّة، وضبط مفرداتها وسياقاتها في متون معجميّة بما يقابلها في الفرنسيّة، ولقد شجّعت الإدارة الفرنسيّة بشكل رسميّ، جهود التراجمة والمترجمين والمعجميين، لا سيّما فئة الواضعين لمصنّفات تعني بالمحكيّات الجزائريّة. ونزّعت غايات الاهتمام بما درج على ألسن الجزائريين، إلى تحقيق المبتغى التعليميّ من جهة، أي ليُتقنها جمهور من المستشرقين والمترجمين، وإلى بلوغ المنتهى التواصلي من جهة أخرى، أي لتمكين من يريد أن يتحدث، ويتواصل مع الجزائريين، من الفرنسيين الذين استوطنوا في الجزائر.

ولقد اتّسمت القواميس، التي أفردت للمحكيّة الجزائريّة جانبا معتبرا من العناية، بخاصيّة العمل الاستقصائي، وبالبحث الميدانيّ؛ ذلك أنّ الجمع طال لغة الحديث اليومي للجزائريين، وشمل مضامين كلامهم المتداول. أضف إلى هذه الخاصيّة محاولة القاموسيين تغطية الاستعمالات اللهجية الرائجة في مناطق مختلفة من الجزائر، وآية هذا تخصيص ترميز للمدينة، التي تُوّظف فيها مفردات دون سواها من المدن والمناطق. ومن ثمّة، فلا نلتمس تفضيل القاموسيين منطقة على منطقة أخرى، بل راحوا يتعهدون مختلف المحكيّات بالقدر نفسه من الدراسة اللسانيّة، والوضع المعجمي، ولا ننسى كذلك حرصهم على تتبّع طرائق النطق المختلفة كثيرا أو قليلا؛ إذ حظيت بتسجيل القاموسيين، وهذا ما ينّم عن جدّيّة العمل المعجميّ، ودقّة ملاحظة التعابير المتداولة، وتتبّع الفويرقات الهيّنة بينها، ولو على ضآلتها.

وتعدّ حزمة القواميس، التي التفتت إلى المحكيّات الجزائريّة، سجّلا هاما لقطاعات من التعابير والسياقات والألفاظ المستقاة من اللهجات؛ فهي تعكس جوانبا اجتماعيّة، وتراثيّة، ولسانيّة للمجتمع الجزائري آنذاك، إذ إنّها نقلت الواقع اللغوي المحكيّ الجزائري، وما اتسم به من تخيّر في توظيف للأمثال، والعبارات المشهورة الاستعمال. ولقد عكست السياقات أوضاع الجزائريين الاجتماعيّة، وأبانت عن خلفيتهم الثقافيّة.

ومن بين ما تميّزت به القواميس التي عنت بالدارجة الجزائريّة، تسجيلها لنواتج الاتصال بين لغة الجزائريين والفرنسيّة، إذ من فرط الاحتكاك اليوميّ المباشر؛ تبنّى الفرنسيون ألفاظا جزائريّة في لغتهم، ومنها ما وجد له سبيلا في القواميس الفرنسيّة الأحاديّة اللغة، وبالمقابل اقترض الجزائريون بدورهم من الفرنسيّة ألفاظا عديدات، تبعا لغياب المقابلات في رصيدهم المعجمي، ونطقوا ما أخذوه عن الفرنسيّة على طرائقهم، وبدأ التأثير اللغوي الفرنسيّ يجري مجراه في المحكيات الجزائريّة، وهو متواصل إلى أيّامنا هذه.

هوامش البحث:

---

* دكتور من جامعة ليون، باحث في الترجمة واللغات وتعدّد الألسن، باحث مراسل لمخبر اللهجات ومعالجة الكلام بوهران (جامعة بن بلة 1).

[1] - Noureddine Guella, *Essays in Arabic Dialectology*, European University Studies, Linguistics, volume 386, Peter Lang Academic Research, Frankfurt, 2015, pp. 82/83. « …dynamisme de ces langues à travers une création verbale et lexicale féconde ».

[2] – رياض عثمان، العربية بين السليقة والتقعيد – دراسة لسانيّة –، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 2012م، ص 26.

[3] - Voir une liste de certaines études consacrées aux dialectes algériens dans : H. A. R Gibb et als, *Encyclopédie de l'islam*, E.J. Brill, tome 1, H.A.R., Leiden, Pays-Bas, 1960, p.390.

[4] – ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثّاني، دار صادر للطباعة والنشر/ دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1968م، ص 359.

[5] – ابن منظور، المرجع نفسه، ص 359.

[6] – نعمة أنطوان وآخرون، المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، ط1، بيروت، 2000م، ص 1304.

[7] - Nicole Tournier et Jean Tournier, *Dictionnaire de lexicologie française*, Ellipses Editions, Paris, 2009, p.106. « Il désigne un idiome qui est ou a été en usage sur une fraction du territoire national, par opposition à la langue commune dite aussi langue standard ».

[8] – عبد الغفار حامد هلال، اللهجات العربية نشأة وتطورا، مكتبة وهبة، ط2، القاهرة، 1993م، ص 34.

[9] – فهمي حجازي، علم اللغة العربيّة: مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات الساميّة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1996، ص 225.

[10] – تمّام حسّان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط2، القاهرة، 1998م، ص 14.

[11] – عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنيّة، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية، 1996م، ص 49.

[12] – داود سلوم، دراسة اللهجات العربية القديمة، عالم الكتب، ، ط1، ، مكتبة النهضة العربيّة، بيروت، 1986م، ص 15.

[13] – محمد عيد، المستوى اللغوي للفصحى واللهجات وللنشر والشعر، عالم الكتب، القاهرة، 1981م ، ص 26.

[14] - Ferdinand De Saussure, *Cours de linguistique générale*, éditions ENAG, collection : « Al anis », Algérie, 1994, p. 323. « Les dialectes n'ont pas de limites naturelles ».

[15]– علي القاسمي، علم اللغة وصناعة المعجم، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1992م، ص 67.

[16] - Henri Fleisch, *Etudes d'arabe dialectal*, Dar El-Machreq éditeurs, Beyrouth, 1986, p. 5. « La plaine favorise les échanges sur de grande distances, le dialecte tend à plus d'uniformité ; la montagne compartimente plus ou moins, on vit davantage en petites communautés, la tendance est alors à la fragmentation dialectale ».

[17] - *Idem.*, p. 9. « Le langage parlé, vivant, obéit à sa loi naturelle : il évolue ».

[18] - Voir H. A. R. Gibb et als, *Op.Cit.*, p.385.

[19] – محمد باي بالعالم، إرشاد الحائر إلى معرفة فلّان في جنوب الجزائر، نسخة مخطوطة، 1433هـ، ص 14.

[20] - Khaoula Taleb Ibrahimi, *Les Algériens et leur (s) langue (s)*, Les éditions EL HIKMA, Alger, 1997, p. 56. « …Pour sauver ce patrimoine populaire de l'oubli face à l'invasion des formes modernes d'expression culturelle bénéficiant, elles, du formidable impact des mass médias et de leur technologie ».

[21] - *Le Petit Larousse Illustré*, Larousse, 100 eme (édition 2005), Paris, 2004, p. 160. Voir (bilinguisme).

[22] – لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغويّة، تر حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008 م.، ص 79.

[23] - Djamel Eddine Kouloughli, *L'arabe*, PUF, Que sais-je ?, Paris, 2007, p. 97. « L'existence de la koinè poétique n'a pas aboli ces différences [entre dialectes] (ce n'était nullement son objet) et même le texte coranique leur a donné, dans une certaine mesure, droit de cité ».

[24] - Khaoula Taleb Ibrahimi, *Op.Cit*., voir p. 46.

[25] - J. F Ruphy, *Dictionnaire abrégé François-Arabe*, A l'usage de ceux qui se destinent au Commerce du Levant, L'imprimerie de la République. Paris, 1802.

[26] - *Idem*., Voir la préface. « C'est par le langage que s'établissent les relations d'e individu à individu et de peuple à peuple, que les vérités se transplantent et se propagent, et que les préjugés se déracinent et s'anéantissent ».

[27] – محمود المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1992م، ص 59.

[28] - Léon Roches, *Trente-deux ans à travers l'islam (1832-1864)*, tome I, Librairie de Firmin-Didot et Cie, Paris, 1884, p.66. « Mon éminent professeur m'avait en outre initié à mille détails ignorés même par les Européens qui s'adonnent à l'étude de la langue arabe ».

[29] – محمود المقداد، المصدر نفسه، ص 106.

[30] - Marcelin Beaussier, Mohamed Ben Chneb et Albert Lentin, *Dictionnaire pratique arabe-français*, Ibis Press, Paris, 2006, p. 5. « Les interprètes attachés à l'armée, tirés de l'école des langues orientales ou pris parmi les descendants des Egyptiens et Maronites qui avaient suivi notre armée, à l'évacuation d'Egypte, sous le nom de Mamelouks, furent très embarrassés ; quelques jeunes gens, presque sans instruction, venus de Tunis, purent seuls comprendre facilement les indigènes ».

[31] - Ellious Bochtor, *Dictionnaire français-arabe*, revu et corrigé par GAUSSIN De Perceval, éditions Firmin Didot, 2 vol, 461, 435 p, Paris, 1828-1829.

[32] - Mohammed Besnaci*, La contextualisation dans la lexicographie bilingue : le cas du dictionnaire français-arabe*, Dar Oum-El-Kitab, Mostaganem, 2014, p. 64.

[33] - Marcelin Beaussier, Mohamed Ben Chneb et Albert Lentin, *Op. Cit*., p.6. « Le Gouvernement, frappé de ces considérations, publia, le 20 décembre 1852, dans le moniteur de l'Algérie, un arrêté ministériel du 29 novembre instituant deux prix de 5000 francs chacun, destinés aux deux meilleurs dictionnaires français-arabe et arabe-français, qui seraient soumis à l'appréciation d'une commission nommée à cet effet ».

[34] - *Ibid.,* « le silence le plus profond fut gardé sur le résultat de ces opérations ».

[35] – محمد بسناسي، إرهاصات المعجميّة الفرنسيّة العربيّة، قيد الطبع.

[36] - Marcelin Beaussier, Mohamed Ben Chneb et Albert Lentin, *Op. Cit*., Voir Philippe Marçais, Préface du supplément de Lentin. « Les ressources [du lexique maghrébin] sont abondantes, diverses, changeantes et dispersées dans un territoire immense».

[37] - *Idem*., p.6. "Un séjour de 27 ans en Algérie, pendant lesquels j'ai été, par suite de mes fonctions, dans un contact incessant avec les indigènes, de nombreuses traductions de pièces de tous genres et d'actes de cadis ».

[38] - Il s'agit de l'édition de : Ibis Press, Paris (2006) et de l'édition de l'OPU, Alger (2014).

[39] – لقد أردفه الناشر لقاموس بوسييه. (أنظر مطبوعات إبيس Ibis 2006)

[40] - Marcelin Beaussier, Mohamed Ben Chneb et Albert Lentin, *Op. Cit*., p 5. « Inutile de dire qu'il ne comprendra pas les indigènes».

[41] - *Idem*., p 7. « J'ai adopté l'ordre par racines …; et calqué mon travail sur les dictionnaires publiés ».

[42] - *Idem*., p. 43.

[43] - *Idem*., p. 28

[44] - *Idem*., p. 274.

[45] - *Idem*., voir (cigogne) et (déjà), respectivement : p. 39 et p. 62.

[46] - *Idem*., p. 61.

[47] - *Idem*., p. 152.

[48] - *Idem*., p. 625.

[49] - Le titre original est : *Supplément au dictionnaire pratique arabe-français de Marcelin Beaussier*.

[50] - Albert Lentin, *Supplément au dictionnaire pratique arabe-français de Marcelin Beaussier*, Ibis Press, Paris, 2006, voir la préface. « Beaucoup de mots m'ont été fournis par mes élèves musulmans ».

[51] - *Ibid*., « La grande masse musulmane des villes arabise de plus en plus certains de nos verbes et de nos substantifs ».

[52] - *Idem*., p. 5.

[53] - *Idem*., p. 41.

[54] - *Idem*., p. 5.

[55] - *Idem*., voir (beaucoup) et (couscous), respectivement : p. 13 et p. 137.

[56] - *Idem*., p. 137.

[57] - *Idem*., p. 40.

[58] - *Idem*., p. 123.

[59] - *Idem*., p. 94.

[60] - *Idem*., voir, p. 42 et p. 232.

[61] - *Idem*., p. 46.

[62] - Auguste Cherbonneau, *Dictionnaire français-arabe*, voir la préface, Albouraq, Beyrouth, 2004. « J'offre aux habitants de notre belle colonie. Il est impolitique de ne pas connaître la langue d'un pays conquis ».

[63] - *Ibid*. « Un séjour de vingt-cinq ans au milieu des villes et des tribus de l'Algérie ».

[64] - *Idem*., voir (étouffer) et (afin), respectivement : p. 144 et p. 12.

[65] - *Idem*., voir (boulanger) et (empoisonné), respectivement : p. 44 et p. 122.

[66] – *Idem*., voir (boule), p.44.

[67] - *Idem*., voir (ami), p.19.
[68] - Alain Rey*, Le Petit Robert,* Robert, Paris, 2014, p.2057.
[69] - Voir les préfaces des dictionnaires de Beaussier, Lentin et Cherbonneau.
[70] - Jean Dubois et als, *Grand dictionnaire : linguistique et sciences du langage*, Larousse, Paris, 2007, p. 115. « Il peut y avoir aussi déplacement massif d'une communauté parlant une langue, conduite à s'installer pour quelque de temps, longtemps ou toujours dans la zone géographique occupé par une autre communauté linguistique ».
[71] - Henriette Walter et Bassam Baraké, *Arabesques : l'aventure de la langue arabe en Occident*, Robert Laffont, éditions du temps, collection : « Le goût des mots », Paris, 2007, p. 159. « L'influence a été réciproque, mais, à partir du XIX siècle, c'est surtout dans les dialectes arabes actuels que se sont multipliés les emprunts au français, et selon des modalités diverses ».
[72] – أنظر محمد بسناسي، ترجمة البعد الاجتماعي الثقافي، مجلّة إشكالات، عدد 6: ، تامنغاست، 2014م.
[73] - Voir Mohammed Besnaci, *La contextualisation dans la lexicographie bilingue : le cas du dictionnaire français-arabe*, Editions Oum-El-Kitab, Mostaganem, 2014.
[74] - Souheil Idriss, *Al-Manhal : Dictionnaire français-arabe*, Dār al-´Adab, Beyrouth, 2004, p. 739.
[75] – *Idem*., p. 697.
[76] - *Idem*., p. 767.
[77] - *Idem*., p. 237.
[78] - *Idem*., p. 767.
[79] - *Idem*., p. 566.
[80] - *Idem*., p. 604.
[81] - *Idem*., p. 415.
[82] - *Idem*., p. 602.
[83] - *Idem*., p. 855.
[84] – مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنيّة فرنسي-إنجليزي-عربي، دار الفكر اللبناني، ط1، بيروت، 1995م، مادة (فراغ معجمي)، ص 162.